

وضع المرأة في المجتمع الأندلسي

دراسة في التاريخ الاجتماعي

ميلودة الفريحي

مختبر التاريخ والتراث والمجتمع

جامعة الحسن الثاني

الدار البيضاء

elferyhymilouda@gmail.com

مقدمة

إنّ البحث عن وضعية المرأة في التاريخ الاجتماعي، يعتبره نوع من المغامرة، لقلّة المصادر التي تتناول الحياة الخاصة للمرأة، وعلى قلّتها تتطلّب الحيلة والحذر، كمعرفة حياة أصحابها، وإلى أيّ جهة سياسيّة ودينيّة ينتمي، وظروف كتابة النصّ، ورغم كلّ هذا فإنّنا لن نستطيع الحسم في نوايا الكاتب. هل صوّر لنا الوضع الاجتماعي بدافع التفاخر، أم بدافع تشويه الآخر؟

لهذا فنحن سنحاول فهم الواقع الاجتماعي في العصر الوسيط، والحديث بناءً على المتاح من المعلومات.

أولا مكانة المرأة الأندلسية في الساحة السياسية:

احتلت المرأة الأندلسية مكانة في المجتمع، وكانت تتمتع بالقوة والنفوذ، فقد ساهمت في السلطة⁽¹⁾ إلى جانب زوجها، وتصرّفت في ثروته الخاصة وأملكه. هذه المكانة لا تستمد قوتها من مقامهنّ السياسي فحسب، بل تستمدّها من اقتدار هؤلاء النّسوة، وما انفتح لهنّ من مجالات الظهور⁽²⁾.

ففي عالم السياسة كان للنساء الأندلسيات دور ومواقف، ساهمن في استقرار واضطراب الأوضاع السياسية، ويتّضح في آخر حكم المرابطين الدّور السياسي للمرأة الأندلسية في التدخّل في شؤون الدّولة. فسيطرت النّساء على أزواجهنّ حتّى اضطربت الأمور، وحلّ الضّعف بدولة المرابطين، وذلك حسب قول المراكشي: "واستولت النّساء على الأحوال وأسندت إليهنّ الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كلّ مفسد وشيّر وقاطع سبيل"⁽³⁾.

لعلّ عبد الواحد المراكشي الذي يعدّ أحد رجالات الموحّدين، قد أورد هذه القصّة بغاية تشويه صورة المرابطين، الذين أطلقوا العنان للنّساء على غير ما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي من منظوره. وبالتالي محاولة إضفاء الشرعية على مهاجمة الموحّدين لحكم المرابطين، بغية العودة للشريعة الإسلامية. تبدو صورة المرأة التي أعطاهم المراكشي، بغاية التشويه هي في منظورنا صورة مشرقة، لأنّها تعني أن المرأة كانت لها سلطة وقوة في موازين المجتمع.

(1) عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، تحقيق خليل شحاتة، بيروت، 1981م، ص. 376.

(2) محمد جميل بهيم، المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة، دار النشر للجامعيين، 1962م، بيروت، ص. 261.

(3) عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 1978م، ص. 221.

وتشير الأبحاث بأن مكانة المرأة المتميزة في الحياة العامة خلال عهد المرابطين لم تكن وليدة قيام دولتهم، وإنما يعود ذلك إلى عادات وتقاليد القبائل الصحراوية، أو ظروف العيش في البادية حيث أنّ المرأة تشارك في الرأي وتمتّع بحرية في مشاركة زوجها في عمله، خصوصا الأعمال الخاصة بالزراعة والرعي.

وخروج المرأة بغير حجاب، أو خروجها عموما في هذه المجتمعات لم يكن مستغربا، وكان يبدو عاديا في كثير من الأعمال العامة، خصوصا في الطبقات الدنيا، سواء في المدينة، أو البادية⁽⁴⁾. لكن نظرة المجتمع لم تنعكس سلبا على المرأة نفسها فقط، بل تعدى الأمر إلى انعكاسه سلبا على زوجها أيضا. "فالمرأة التي تخرج متبرجة يصبح زوجها -في نظر فقهاء العصر- لا تجوز إمامته ولا شهادته"⁽⁵⁾. وهو ما نجده في أمثال الأندلس أيضا "مَنْ أَزَوْجَ قَحْبَةٍ قُرْآنُ بِشَهَادَةٍ" (زوج العاهرة غير معترف بشهادته)⁽⁶⁾. ولعلّ هذا ما جعلهم يحرصون على عزل المرأة في فضاء خاص هو البيت، لأنّ خروجها مجلب للعار في نظرهم، وبالتالي فالتضييق على خروجها لم يكن خوفا على المرأة، إنّما هو خوف على الرجل نفسه. على اعتبار أنّ خروجها كان ينعكس سلبا على نظرة المجتمع إليه⁽⁷⁾.

فالمرأة المثلى بالنسبة لأغلب الفقهاء خلال فترة الحكم الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية، هي تلك التي تطيع زوجها، وتقرّ في بيتها ملتزمة بالأعمال الدينية والأسرية. ومع هذا لم تستطع صورة المرأة الأندلسية ككائن يمثل الجمال والأنوثة، ويحتفي بالدلال والزينة أن تغيب من الأدبيات التاريخية، كأدبيات ابن الخطيب وهو يصف نساء غرناطة في عصره، وصف أديب، ومؤرخ دقيق الوصف، لما يشاهده من أحوالهنّ، وفقهه متحفّظ من بعض ما لا يرضى عنه من تصرفهنّ، وسوف يسأل الله أن يشملهنّ بلطفه ويعمهنّ بستره، فقال: "وحريمهم [أي أهل غرناطة]

(4) عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، 1991م، ص. 163.

(5) محمد ياسر الهلالي، نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرن 8-9 هـ / 14-15 م مساهمة في تاريخ الذهنيات، ضمن حلقات في تاريخ المرأة في المغرب، مجلة أمل التّاريخ -الثقافة-المجتمع، عدد مزدوج 14/13، ص 78.

(6) أحمد الزجالي، أمثال العوام في الأندلس، القسم الثّاني، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بنشريف، منشورات وزارة الدولة

المكلّفة بالشؤون الثقافية والتّعليم الاصيل، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية فاس، 2000م، ص 289.

(7) نفسه.

حريم جميل، موصوف بالسحر وتنعم الجسم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المجاورة. إلا أن الطول يندرفهم. وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجيات، والتماجن في أشكال الحلّي، إلى غاية نسأل الله أن يغضّ عنهنّ فيما عين الدهر ويكفكف الخطاب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء، والفتنة، وأن يعامل جميع من بستره، ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته"⁽⁸⁾.

وضعية المرأة الاقتصادية:

وقد أشار ابن حزم في إحدى المناسبات في كتابه طوق الحمامة، إلى جملة من الأنشطة الاقتصادية للمرأة الأندلسية في عصره: من أهمها الطب والحجامة والتعليم والتّجميل⁽⁹⁾، إذ اشتغلت المرأة الأندلسية بالتجارة وبرزت في أسواق الحواضر إلى جانب الرجل إمّا بائعة أو مبتاعة، بالرغم من الحذر والرهبة الذي أحاط بمشاركتها الجنس الخشن لهذه المهنة، ومزاحمتها إيّاه والذي يظهر من خلاله عدد من أحكام الفقه والحسبة، التي فرضت مجموعة من الشروط على الممارسة التجارية للنساء⁽¹⁰⁾.

إنّ وضع النساء في المجتمع الأندلسي خلال فترة الحكم الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية، مرتبط بمكانة

الرجل، فأغلب الرجال من الخاصّة نساؤهم لهنّ مكانة في المجتمع مثل:

- ولادة بنت المستكفي ابنة الخليفة المستكفي بالله

- الزلفاء زوجة المنصور محمد بن أبي عامر

- اعتماد الروميكية زوجة المعتمد بن عباد

⁽⁸⁾ محمد لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، تحقيق عبد الله عنان، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1974م، ص 139.

⁽⁹⁾ أبو محمد علي ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2014م، ص 35.

⁽¹⁰⁾ محمد السقطي المالقي، آداب الحسبة، مطبعة إرنستلور-باريس، 1931م، ص 47.

- بثينة بنت المعتمد بن عباد

أمّا نساء العامة فوضعنّ مرتبط بوضعية الرجل الاقتصادية والرمزية، لهذا فالعلاقة بين الرجل والمرأة في هذه الطبقات، قائمة على نوع من التعاون والتضامن الذي فرضته الحياة. فقد كان على الرجل العامي، أن يعمل بجهد خارج المنزل، لكي يحصل على قوت العائلة وعيشها اليومي، في الوقت الذي كانت المرأة فيه، تشتغل بجهد أيضا داخل البيت، لتدبير شؤونه وتربية الأطفال. أمّا المرأة في البوادي، فكانت تقوم بواجبات أكثر اتساعا، خارج حدود المنزل، فكان نشاطها يمتدّ إلى الأعمال التي تستهدف الحصول على قوت العائلة. وفي المدن نفسها، كانت المرأة العامية تتجاوز في أعمالها الواجبات المنزلية أحيانا، فتساهم في الحصول على القوت ليس داخل المنزل فقط، بل وحتى في خارجه أحيانا⁽¹¹⁾.

ولعلّ المرأة في الأوساط العامة كانت مهضومة الحقوق وفي وضعيّة أدنى من أخيها الرجل، كما أنّ نظرة المجتمع إلى العنصر النسائي ظلّت دونيّة، الأمر الذي انعكس على وضعيتها داخل الأسرة، وذلك ما بينته نوازل ابن رشد⁽¹²⁾؛ التي تتحدّث عن إهمال الرجل، بتعليم ابنه وإقصاء الفتاة، وحرمانها من الذهاب إلى الكتّاب، ليتضح تهميش الفتاة وحصرها في مرتبة أدنى. مثل ظاهرة سلب الرجل لحقّ أخته في الميراث الشرعي وحرمانها منه. كما أنّ الأمثال الشعبية، أصدق تعبير لنظرة المجتمع للمرأة، فقد اعتبروها مصدر بلاء لقول المثل "مَنْ عِنْدُ وَلِيٍّ عِنْدُ بَلِيٍّ"⁽¹³⁾ (من له بنت، له بلاء). وإذا توفّي الوالد وترك بنات غير متزوّجات، فهو بمثابة تارك "العار" "وَيَّ عَلَى مَنْ مَاتَ وَخَلَّى سَبْعَ بَنَاتٍ"⁽¹⁴⁾ (الويل لمن مات وترك سبع بنات).

⁽¹¹⁾ صلاح خالص، إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، ب.ت، ص. 91-92.

⁽¹²⁾ ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد، فتاوي ابن رشد، تقديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص 1407.

⁽¹³⁾ الزجالي، أمثال العوام في الأندلس، ق. 2، م س، ص 24.

⁽¹⁴⁾ نفسه، ص. 452.

خاتمة:

وخلاصة القول فالوسط النسائي في الأندلس عرف ازدواجية، فكما نجد نساء متحزرات، أو على الأقل لهنّ صيت ومكانة في المجتمع والأسرة، نجد نساء منعزلات، في فضاء منعزل، يكتفين بإعادة إنتاج النوع. واستمرت هذه الازدواجية حتى بعد سقوط الأندلس، ورغم محاولات محاكم التفتيش لتغيير دين وعادات المسلمين والمسلمات، ليصبحوا على ملّة الدين المسيحيّ، إذ خرجت النساء بدون حجاب، إلّا أنّ هناك عددا من الأندلسيّات حافظن على حجابهنّ، ولم يظهرن للرجال حتى لذاك الذي تقدّم لخطبتهنّ.⁽¹⁵⁾

البيبلوغرافيا

- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحانة، بيروت، 1981م.
- محمد جميل بهيم، المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1962م.
- عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 1978م.
- عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، 1991م.
- محمد ياسر الهلالي، نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرن 8-9 هـ / 14-15 م مساهمة في تاريخ الذهنيّات، ضمن حلقات في تاريخ المرأة في المغرب، مجلّة أمل التّاريخ -الثقافة-المجتمع، عدد مزدوج 14/13، 1998م
- أحمد الزجالي، أمثال العوام في الأندلس، القسم الثّاني، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بنشريف، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصيل، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية فاس، 2000م.

⁽¹⁵⁾أفوقاي، ناصر الدين على القوم الكافرين، م س، ص72.

مجلة أسئلة ورؤى

مجلد رقم: 2 عدد رقم: 4 مجلة دولية نصف سنوية

E-ISSN : XXXX-XXXX

ISSN : 2773-2975

<https://www.asjp.cerist.dz/ar/PresentationRevue/833>

- ابن الخطيب محمد لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، تحقيق عبد الله عنان، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1974م.
- صلاح خالص، إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، ب.ت.
- أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد، فتاوي ابن رشد، تقديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.
- أبو محمد علي ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2014م.
- محمد السقطين الملقب، آداب الحسبة، مطبعة إرنستلورو – باريس، 1931م.
- الحجري أحمد بن قاسم أوقاي، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1987م.